

مقومات الهوية العربية الاسلامية عند زكي نجيب محمود
Elements of the Arab Islamic identity for Zaki Naguib Mahmoud

د. حوري بديع الزمان

جامعة الشهيد حمه لخضر badiehour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2019/10/20 ؛ تاريخ القبول : 2019/11/01

ملخص : يتناول المقال وجهة نظر المفكر المصري زكي نجيب محمود حول تحديد خصائص الهوية العربية الاسلامية، حيث يلخصها في أربع مستويات: المستوى الأول: حول الوجود وهي عقيدة العربي الوجودية التي تفصل بين وجود إلهي وبين باقي الموجودات (الطبيعة ، الانسان، الحيوان)، المستوى الثاني في الأخلاق حيث سادت أخلاق الواجب على أخلاق المنفعة وأن الخير هو ما يحدده الله. أما في المستوى الثالث فكان حديثه عن اللغة العربية التي تميزت بالتجريد والرمزية والإيجاز أما المستوى الرابع فكان عن الفن العربي الذي كان هو الآخر تجريدي رمزي مثل ما هو فن الزخرفة والرسم والشعر .

الكلمات المفتاحية : زكي نجيب محمود ؛ الهوية ؛ الثقافة العربية الاسلامية .

Abstract : The viewpoint of the Egyptian thinker Zaki Naguib Mahmoud on the characteristics of the Arab-Islamic identity, where he summarizes them in four levels: The first level: Existence, which is the existential Arab creed that separates the existence of a divine and the rest of the beings (nature, man, animal) The second level in ethics where the ethics of duty prevailed On the ethics of utility and that good is what God determines. As for the third level, his talk was about the Arabic language, which was characterized by abstraction, symbolism and brevity. The fourth level was about Arab art, which was also an abstract symbolic, such as what is the art of decoration, painting and poetry.

Keywords : Zaki Naguib Mahmoud; identity ; Arab Islamic culture.

مقدمة

جاء اهتمام المفكر زكي نجيب محمود بموضوع الهوية العربية في اطار البحث عن حل لإشكالية أكبر وهي اشكالية التوفيق بين الحضارة العربية والحضارة الغربية المعاصرة، فكان مضطرا للبحث عن خصائص ثقافتنا العربية تمهيدا لانتقاله فيما بعد للحديث عن الثقافة العربية المعاصرة ماذا يريد لها أن تكون من هنا يمكننا صياغة اشكالية المدخلة كالتالي : ما هي محددات ومقومات الهوية العربية الاسلامية ؟ وما خصائصها؟

عرض

يمكن أن نقسم حديث زكي نجيب محمود عن مقومات الهوية العربية الإسلامية الى أربعة مجالات وهي : الوجود ، الأخلاق ، اللغة ، الفن ، وسنقف عند كل مجال بالتفصيل .

1 - مقومات الهوية العربية الإسلامية وخصائصها

1.1. الوجود

إن المقصود هنا من الوجود هو نظرة العربي المسلم الى الوجود ، وهي نظرة مستمدة من عقيدته الدينية الإسلامية ، حيث يرى زكي نجيب محمود أن " صميم الثقافة العربية . لا فرق في ذلك بين قديمها وحديثها . هو أنها تفرق تفرقة حاسمة بين الله وخلقه ، بين الفكرة المطلقة وعالم التحول والزوال ، بين الحقيقة السرمدية وحوادث التاريخ ". وأما خصائص الوجود الأول فهو " جوهر لا يتبدل والثاني عرض ويختفي ". محمود، زكي نجيب. (1993). قصة عقل، القاهرة: دار الشروق. ص 183.

إن هذه النظرة هي التي يمكن أن ندرجها تحت مبدأ الثنائية . ثنائية الوجود لا ثنائية الإله . ومضمونها أن الوجود قسمين لا يكونان من رتبة واحدة و لا وجه للمساواة بينهما هما الخالق والمخلوق ، الروح المادة ، العقل والجسم ، المطلق والمتغير ، السماء والأرض . ومن هنا أتت عقيدة التسليم الكامل للمشيئة الإلهية عند العربي . غارديه، لويس. (1992)، أثر الإسلام في العقلية العربية ، ترجمة :خليل أحمد خليل، بيروت: دار الفكر اللبناني. ص37.

ومن اليسير أن نلتمس الدليل الشرعي من هذه الوقفة التي وقفها زكي نجيب محمود كآيات الدالة على عظمة الخالق "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير " سورة الملك، الآية: 01. أو الآيات الدالة على اعتراف العبد بالربوبية لله في قوله : " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا.." سورة الأعراف، الآية: 172. أو الآية الدالة على مهمة وغاية الإنسان في الأرض " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " سورة الذاريات، الأيتان: 57.56.

إن هذه النظرة تختلف عن الذين جعلوا الوجود كله روح صرف، كما فعل أفلاطون ، وتختلف أيضا عن الذين جعلوه مادة صرفة كما فعل الماديون أمثال لامارك وداروين، وتختلف ثالثا عن الذين شطروا الوجود شطرين ، كل منهما متجانس لكنه مستقل عن الآخر، لكن هؤلاء الثنائيين قد يجعلون هذين الشطرين على مستوى واحد من الأصالة والأولوية ، فلا الروح خلقت المادة ، ولا المادة سبقت الروح ، بل هما أزليان معا ، يتلاقيان في الكائنات كما نراها، كما تختلف رابعا مع من يردّ الوجود الى كثرة من العناصر لا داعي لتجميعها تحت مبدأ واحد أو مبدأين". محمود، زكي نجيب(1980) تجديد الفكر العربي. القاهرة: دار الشروق ، ص 274،275.

على أنه وإن كانت النظرة العربية الإسلامية مثالية ، أي أن تقرّ بوجود عالمين : عالم حقيقي خالد ، والآخر ناقص فاني ، فإنه مع ذلك تعطي وجودا حقيقيا لأفراد الإنسان ، وهذا ما يجعلها تختلف مع مثالية أفلاطون .
أنظر مثلا الى أفلاطون ، فستجده قد بالغ في ثنائيته التي تجعل الأولوية للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيات ، الى الحد الذي ألغى معه وجود الأفراد الجزئية وجودا حقيقيا ، بما في ذلك أفراد الإنسان انفسهم ، فليس للفرد الإنساني الواحد من حقيقة عنده إلا بمقدار ما يشارك الإنسانية بمعناها المجرد ، وهذا ما لا يتفق مع العقيدة الإسلامية التي تلقي على أفراد الناس تبعات خلقية عما يعملون أفرادا لا انواعا وأجناسا وجماعات ، وهذا معناه اعترافنا الصريح بالوجود الحقيقي لهؤلاء الأفراد في حياتهم الدنيا ، وفي حياتهم الآخرة على حد سواء. محمود، زكي نجيب، (1980) .ص.276.
وهذا ما جعل زكي نجيب محمود يعدّل حكمه الأول بتغيير طفيف ، فبعدما قرر الثنائية ، عاد ليستدرك ويغيرها بثنائية من نوع خاص ، فهي " نظرة متميزة فريدة ، تجعل الكائن الإلهي الواحد المطلق في جهة ، وتجعل الأفراد الجزئية في جهة أخرى ، ثم تقسم عالم الأفراد هذا الى كثرة من عناصر بالنسبة الى أفراد الناس . على الأقل . لأنها نظرة تأبى أن ينطمس الفرد الإنساني المسؤول في عجينة واحدة مع سائر مفردات العالم الطبيعي ، فكأنما هي نظرة تجمع بين الثنائية والكثرة ." محمود، زكي نجيب، (1980) .ص.276.

إن هذه النظرة الى الوجود والكون لهي الحجر الأساس لما نسميه بالثقافة العربية الإسلامية ، إذ أن الخصائص الأخرى والمقومات الباقية ما هي إلا نتيجة لهذه الوقفة العقائدية .

وأول ما يتفرع عنها هو أن الثقافة العربية الإسلامية تجعل تعارضا حادا بين الذات والموضوع ، ف " لا سبيل عند العربي الى خلطه بين ذات نفسه من جهة ، والأشياء في عالم الواقع من جهة أخرى ، فهو هنا في ناحية وهي هناك في ناحية ." محمود، زكي نجيب، (1980) .ص.245.

يعتقد زكي نجيب محمود أن العربي لا يدع نفسه تسري في الأشياء ولا يدع الأشياء تسري في نفسه ، إنه بالنسبة إليها في عزلة ووحدة ، ولكنه " يستعويض عن الأشياء بألفاظ ومن ثم جاءت حياة العربي في لغته أكثر مما جاءت في أشياء بيئية ، ومن هنا أيضا كان للغة العربية ما كان لها من سيطرة عليه وجذب له ." محمود، زكي نجيب، (1980) .ص.246.

إن هذا الشعور. كما يرى زكي نجيب محمود . " يجعلنا نجاوز الشهادة الى الغيب ، ونجاوز اللحظة العابرة الى حياة الخلود ، ونجاوز أيضا حدود الأشياء الى ما يمكن أن ترمز إليه ." محمود، زكي نجيب (1982). هذا العصر وثقافته، القاهرة: دار الشروق، ص 133.

، ثم إن هذه الحقيقة متوافقة مع " ما توحى إليه بما لانهاية الصحراء التي هي [بالنسبة للعربي] بيته الكبير كما تؤكد لها رسالات السماء ." محمود، زكي نجيب، حصاد السنين، مصر: دار الشروق، ص 410.

وإذا كان هذا الفصل عند العربي بين عالم الأشياء وذاته مفهوما بالنسبة لنا ، فإن غير المفهوم كيف تصبح هذه " الأشياء " ذاتها أكثر قربا من " الكلمات " وذلك عندما يحل زكي نجيب محمود نظرة العربي إذ يقابل هذا الأخير بين الأفعال أو الأحياء و الأشياء التي يصادفها في حياته الواقعة من جهة ، وبين مثلها العليا من جهة أخرى ليستطيع تقويمها ، فهو إنما يقابل بين طرفين ، كلاهما واقع من كائنات هذه الأرض ، ف " هو يقيس [أي الإنسان العربي] هذا الفرد المعين من أفراد الناس ، الى فرد آخر يراه مثلا للكمال ، ويقيس هذا الجواد أو هذه الناقة الى جواد آخر أو ناقة أخرى " .

ويشرح زكي نجيب محمود هذه الخاصية وبواعثها الى أن العربي " لا يريد أن يقيس كائنات الدنيا الواقعة الى تصورات عقلية لا وجود لها إلا في الأذهان " محمود، زكي نجيب .(1981).هموم المتقنين، القاهرة: دار الشروق، ص 125.

إن هذه الوقفة عند العربي تختلف . حسب زكي نجيب محمود . عن وقفات أبناء الثقافة الأوروبية ، فهم هناك . كما يظهر ذلك في فلسفتهم . يجعلون المقابلة بين عالم الأفكار وعالم الأشياء ، لا بين الأشياء والأشياء .
وخلاصة القول ، فإن عقيدتنا الدينية أو الوجودية كان لها التأثير الأكبر في تكوين عقليتنا ، وبالتالي هويتنا ، ومن هذه النظرة الدينية تسلسلت عنها وانبتقت عنها عدة رؤى أخرى في المجال الأخلاقي واللغوي والفني ، ومن هذه الرؤى ، النظرة الى الأخلاق ، فما هي إذن نظرة العربي الى الأخلاق ؟

2.1 - الأخلاق

إنه من الصعوبة الفصل بين النظرة الدينية والنظرة الأخلاقية في الإسلام ، ذلك أن القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارهما أهم مصادر التشريع ، تضمنتا مبادئ أخلاقية على شكل أوامر ونواهي: صبحي ، أحمد محمود. الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مصر: دار المعارف، ص 10، وهذا ما يفسر غياب و انعدام للفلسفة الأخلاقية ، وهذا ما يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

والحق أن الدين الإسلامي يمثل نظام حياة شامل وكامل ، ومع ذلك يمكن أن نصنف بعض المواضيع الى مجالات خاصة ، كالأخلاق ، السياسة ، الإقتصاد .. الخ

يعتقد زكي نجيب محمود أن العربي يولي اهتماما كبيرا بالأخلاق ، فإيمان العربي بأن الحضارة الصحيحة إنما تدار على محور الأخلاق ، فليس المهم فيمن هذبت الحضارة أن يكون قويا بسلاحه ، و لا قادرا بماله ، بل المهم هو أن يقوم التعامل بين الإنسان وربه ، والإنسان والإنسان على أنماط رسمتها السماء لأهل الأرض وحيًا عن طريق ابنائها .
ولما كانت الأخلاق على هذه الدرجة من الأهمية ، فإن العربي يقيم " الأخلاق على أساس الواجب لا على أساس الفائدة " . ومن هنا كان من غير المقبول عندنا كما يرى زكي نجيب محمود أن يقال أن الأخلاق مدارها . في نهاية الأمر . منفعة تعود على الناس ، لأننا نرى أن الفضيلة هي جزاء نفسها ، أرادها لنا الله وعقلناها ، فالفعل عندنا يعد فاضلا في ذاته بغض النظر عن نتائجه ، فهي ضارة بصاحب الفعل أم نافعة له . محمود، زكي نجيب .(1981).هموم المتقنين، ص 277.

إن ذلك يعني أن الموحى بالأعمال هو " الواجب " لذاته ، ويكون تنفيذها خضوعا لسلطته وحده بغض النظر عن النتائج المترتبة على هذا الفعل . وما يؤكد ذلك ، هو مضمون كثير من الآيات القرآنية كقوله تعالى : " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .." سورة الأعراف، الآية: 172، وقوله أيضا : " وما خلقت الجنّ الإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون "سورة الذاريات، الآيتان: 56، 57،

وانطلاقا من هذا فإذا كان الإيمان بصحة العقيدة أمرا اراديا ، فإن مقتضى ذلك أن يكون لهذه العقيدة من السلطان والإلزام ما يترجم عن صحة هذا الإيمان ، وذلك بتنفيذ واجباتها في شكل الأوامر والنواهي . نصار، محمد عبد الستار .(1982). دراسات في فلسفة الأخلاق ، الكويت: دار القلم، ص 126.

صحيح أن الواجب قد يجيء مصحوبا كذلك بنتائج نافعة فوق كونها واجبة ، ولكن ليس بالضرورة أن نلتمس أو جه النفع في أي فعل أخلاقي .

ومن المعلوم أن تأسيس الأخلاق على أساس الواجب قال به فيما بعد الفيلسوف الألماني كانط (Emmanuel Kant 1724-1804) حينما وضع ثلاث مبادئ للواجب الأخلاقي :

- اعمل دائما بحيث يكون في استطاعتك أن تجعل من قاعدة فعلك قانونا كليا للطبيعة.
- اعمل دائما بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أشخاص الآخرين كغاية لا كمجرد وسيلة .
- اعمل بحيث تكون إرادتك باعتبارها كائنا ناطقا هي الإرادة المشرعة الكلية.

ومعلوم أيضا أن نظرة العربي هذه ، تتناقض كليا مع مذهب المنفعة الحديث عند جون ستوارت مل J.S.MILL أو وليام جيمس W.JAMES (البراغماتية) إذ يرى هذا الأخير أن آية الحق النجاح ، وآية الباطل الإخفاق، وعند البراغماتية ، الإيمان أصدق من الإلحاد وأحق ، لأنه أجدى على الإنسان وأنفع. محمود، زكي نجيب، وأمين، أحمد. قصة الفلسفة الحديثة ، مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص 412.

يعتقد زكي نجيب محمود أن الوقفة العربية في مجال الأخلاق لا تلتئم مع نمطين آخرين في عصرنا هذا أحدهما يرى أن القوانين الأخلاقية كغيرها من القوانين هي وليدة الحياة الواقعة ، فما قد ثبت على التاريخ أنه نافع ، جعلناه قانونا خلقيا ننظم به سلوكنا ، وما قد تبين على التاريخ أنه ضار ، حذفناه من قائمة الأعمال المقبولة ، ولما كان النفع والضرر يتغيران بتغير الظروف ، وجب علينا ان ننظر الى مبادئ الأخلاق على أنها نسبية لامطلقية ، بحيث نكون على استعداد لأن نغير منها ما لا بد من تغييره ، لئلا يقف عقبة في سبيل التقدم مع ما يقتضيه الزمن وحضارته.

ولعل هذا المذهب الذي يعنيه زكي نجيب محمود هو المذهب النفعي أو البراغماتي ، والذي كان أساسا في أمريكا حيث العقلية الإقتصادية النفعية الجديدة ، خصوصا عند وليام جيمس (William James 1842-1910) وجون ديوي (John Dewey 1859-1952) وتشلز بيرس (Charles Peirce 1839-1914).

وأما المذهب الثاني الذي يراه زكي نجيب محمود متعارضا مع الوقفة العربية الإسلامية ، فهو المذهب الذي يقول أصحابه " إن المسألة هنا ليست مرهونة بتقدم أو تأخر في طريق الحضارة ، لكنها مسألة الإنسان وحرية المطلقة في أن يتخذ لنفسه ما شاء من قرار بشرط أن يكون مسؤولا عن قراره ذلك، فليس هناك احد فوقه أو الى جانبه يملئ عليه ما يجب وما يجوز". ومن المعروف أن هذا المذهب هو الذي دعت اليه الوجودية ، وهذا مانفهمه من مقولة جون بول سارتر (Jean Paul Sartre 1905-1980) المشهورة : " لا يوجد غيري فأنا وحدي الذي أقرر "ويقول أيضا : " إن الأشجار والأحجار هي مجرد كائنات ، وأن الإنسان في هذا العالم هو وحده الذي يوجد " لذاته " أي يمتلك وجدانا " .

وليس هذا فحسب ، بل يمكن أن نلتمس نظرات أخرى للوقفة الأخلاقية مما يتعارض مع الوقفة العربية ، فنجد مثلا الفيلسوف المحدث نيتشه (Nietzche Friedrich 1844-1900) قد اعتبر ان القيم الأخلاقية نسبية ، بل قسم الأخلاق الى : أخلاق السادة وأخلاق العبيد ، فالإحسان والتعاطف والرحمة هي قيم أبداعها وخلقتها الضعفاء من انفسهم حتى يحافظوا على مكاسبهم من خطر السادة والأقوياء ، وعليه فإن نيتشه يرى بأن الأخلاق الحقيقية هي أخلاق السادة التي تدور حول : القوة ، البطش ، السيطرة ، الغلبة .. إلخ، وهي الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الإنسان الأعلى (super man)

إن هذه الهوية الكبيرة التي تفصل بين النظرة العربية الإسلامية ، وبين نظرة العصر الحاضر (الغرب) بالنسبة للأخلاق ، هي التي ستجعل التوفيق بينهما ، محاولة تكاد تكون مستحيلة ، وهو ما سنتطرق اليه في الفصل الثالث .
والحق أنه عندما يقول أحد الفلاسفة أن " الإنسان كائن أخلاقي " ، فإن هذه الصفة تتجسد أكثر عند الإنسان العربي ، ذلك أن غاية الوجود الإنساني عنده هي أخلاقية بالأساس وهي التكليف ، ولعل ارجاع العربي قيمة الفعل الى نية الشخص لا الى نتيجة فعله هي من قبيل هذا الباب ، فأنت غير ملام إن قتلت دون عمد أو فطرت رمضان نسيا ، وهذا ما يؤكد قوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالنيات ، وإن لكل امرئ ما نوى " ، أو قوله تعالى على لسان المؤمنين : " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا "سورة البقرة، الآية: 284.

وبعد ان حدد زكي نجيب محمود ملامح النظرة العربية الإسلامية ، في كل من جانبها الديني والأخلاقي ، ينتقل الى الحديث عن خصائص اللغة العربية .

3.1 - اللغة العربية

يعرف الجرجاني اللغة بأنها " ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " ، وأما لالاند LALANDE فيعرفها " هي جملة من الإشارات يمكن أن تكون وسيلة للإتصال " . ويرى علماء اللغة أن دور اللغة هو تمكين المجتمع من التواصل فيما بينه ، غير أنهم يؤكدون على أن تأثيرها . بما لها من قوالب جاهزة وثابتة . يمتد الى طريقة تفكير المجتمع ذاته . وهذا ما دفع بزكي نجيب محمود الى القول إن : " روح اللغة تهديك الى فلسفة المتكلمين بها " ، بل إن " خصائص اللغة تكون هي نفسها خصائص أصحابها " . محمود، زكي نجيب .(1993). قصة عقل، ص 231.

على أن زكي نجيب محمود حينما يتحدث عن اللغة العربية فلا يقصد منها مجرد أن يكتب المرء أو يتكلم بالعربية حتى يصبح عربيا ، فالأوروبي الدارس للغة العربية قد يتكلمها ويكتبها ، ومع ذلك لا ندرجه في العروبة ، إنا من أبنائها ، وإنما المهم هنا هو اللغات العقلية والإدراكية العميقة التي تكمن في كيان العربي فتتميل به الى اكتساب الصفات المتمثلة في اللغة العربية ، وأما الأجنبي الذي درس اللغة العربية ، إنما يتكلمها أو يكتبها من السطح ، وأما العربي فهو يتكلمها ويكتبها من الجذور . ولذلك فقد عني زكي نجيب محمود بابرار الخيط الرفيع الذي يربط اللغة العربية مع التصورات الوجودية والإدراكية للعربي ، حيث يستنتج أن العربي يميل الى الإيجاز منه الى الإطالة ، " وميله الى تكثيف المعنى في أقل حيز ممكن من اللفظ ، ومن هنا كان حبه للمثل السائر والحكمة المضغوطة في جملة قصيرة " . محمود، زكي نجيب .(1981). هموم المثقفين ، ص 123.

ولعل ميل العربي الى الإيجاز هو تناسب ذلك مع نظريته الى الوجود ، فلئن كان في صميم تكوينه العقلي الثنائية ، أي عدم الإهتمام بالأفراد وإنما يريد الخلاصة العامة المجردة " ليسهل حملها معه وهو مسافر في الفلاة على ظهور الإبل " . محمود، زكي نجيب .(1981). ص 123.

وما يلاحظ من خلال ربط زكي نجيب محمود خصائص اللغة بالموقف في الوجود ، أنه استعمل أكثر من نوع من الأدلة والبراهين ، فتارة يلجأ الى البرهان النفسي وتارة أخرى على البرهان المنطقي والعقلي .

إن العربي حسب زكي نجيب محمود يريد صميم اللباب ليطير معه في انتقاله السريع ، ولا يريد التفاصيل التي يتقلحها وحملها ، و " القرآن الكريم إذا ما وجه الخطاب الى بني اسرائيل أطنب في القول ، وإذا وجهها الى العرب أوجز ، وذلك لإختلاف الفئتين في طريقة الفهم والتعبير " . محمود، زكي نجيب .(1981). ص 124.

ومنه يمكن القول أن اللغة العربية لها خاصيتين اثنتين ، الأولى : الإيجاز ، والثانية : التجريد ، وكمثال على التجريد أن الشاعر العربي إذا تغزل في امرأة ، فلم يكن في معظم الحالات يقصد إلى امرأة بعينها ، بل إن غزله منصبا على نوع المرأة بأسره ، وكذلك قل فيه إذا وصف جوادا أو بعيرا أو ما شئت مما كان يتعرض لوصفه. وقد يعترض أحد ويقول إن بعض الفنون في الأدب كالقصة والمسرحية ، فيهما من الإطناب الشيء الكثير ، غير أن زكي نجيب محمود يرد بأن "أدب القصة أو أدب المسرح فذلك جانب طرأ علينا حديثا نقبله ولا نرفضه ، لكن لنعلم أنه بعد جديد أضيف إلى الصفة العربية الأصيلة .. محمود، زكي نجيب .(1981).ص 124.

ولقد أورد زكي نجيب محمود بعض الشواهد في التاريخ الفكري للحضارة العربية الإسلامية التي تؤكد ما للغة من تأثير على مستعملها أو العكس ، أي تبرير وتفسير لوضعية اللغة وبنيتها ، منها أنه من خصائص اللغة العربية ، فمثلا " أنك إذا عرفت الأصل الثلاثي ، عرفت كيف تفجر منه شجرة المشتقات على كثرة فروعها " ، فإذا عرفت كلمة " كَتَبَ " فجزتها بعد ذلك فأخرجت منها : كاتب - كتاب - كتابة - مكتوب ... إلخ ، فكأنها القبيلة أو العشيرة يتعدد أفرادها ، لكن هؤلاء الأفراد جميعا ينتمون إلى رأس واحد ، ومعنى ذلك أن " أبناء العروبة على امتداد الوطن العربي الكبير ، قد جاؤا في طرائق النظر على غرار ما تتميز به لغتهم من صفات ". محمود، زكي نجيب .(1981). هموم المتقنين ، ص 122.

ويجري زكي نجيب محمود مقارنة بين اللغة العربية وبين الإنجليزية ، فيرى بأن اللغة العربية أسهل على التعلم ، فكلمة " عقد " تتبثق منها فروع قد تبدو متباعدة المعاني ، لكنها معان من أسرة واحدة ، جذها الأول هو هذا الثلاثي ، فمنه تجيء عاقد ومعقود ، وعقد (بسكون القاف) وعقد (بكسر العين) وعقيدة ، ومنعقد ... إلخ ، وأما في الإنجليزية فعندئذ تجد كل معنى قد جاء من ناحية ، بحيث لا يدرك الفاحص صلة الرحم بين أفراد الأسرة الواحدة ، وعلى الإنسان في الإنجليزية في حالة كهذه أن يحفظ كل لفظة بمعناها ، مستقلة عن أختها ، وأما في العربية فإذا عرفت الجد عرفت شجرة الأسرة بكل فروعها ، من الأخوة إلى أبناء العمومة والخزولة ، إلى الأحفاد وما بعد الأحفاد. محمود ، زكي نجيب .(1984). قيم من التراث ، ص 10.

وأما لماذا تعتمد اللغة العربية على الفعل الثلاثي كمصدر أساسي لإشتقاق باقي المفردات والكلمات ، فذلك لكي " يحمله معه أينما سار ، وأما ما يتفجر من ذلك الينبوع اللغوي فيتركه إلى حين الحاجة إليه " .

ويبيد زكي نجيب محمود تأييدا وأعجابا لمحاولات اللغوي العربي بن جني لتحديد خصائص اللغة العربية وذلك في كتابه " الخصائص " ، من ذلك مثلا أيهما أقرب للعربي : الإيجاز أم الإطالة ؟ والإجابة هي أن العرب " إلى الإيجاز أميل ومن الإكثار أبعد " : محمود، زكي نجيب .المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، القاهرة: دار ص 230.

لقد امتاز العرب بجوامع الكلم وهي الأمثال والحكم ، وهي آراء متفرقة غير متسقة في نظام ما ، سواء كانت نثرا أو شعرا ، وفي مجمع الأمثال يوجد نحو عشرون ألفا من الأمثال العربية. فروخ، عمر.(1989). عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ، لبنان: المكتبة العصرية ، ص 40.

ويبين زكي نجيب محمود موقف بن جني في مسألة إيجاد تفسير عقلي لرفع الفاعل ونصب المفعول ، وهو لأن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد ، وقد يكون له مفعولات كثيرة ، فرفع الفاعل لقلته ، ونصب المفعول لكثرتة، وذلك ليقل في كلامهم ما يستقلون، ويكثر في كلامهم ما يستخفون ، وهو يبين أن الضمة والواو ثقيلتان على لسان العربي والفتحة والألف خفيفتان. محمود ، زكي نجيب .(1980). تجديد الفكر العربي ، ص 324.

ويعود زكي نجيب محمود الى المقارنة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات ليستنتج من خصائص اللغة استنتاجات أخرى منها أن :

_ ترتيب الألفاظ دالا على ترتيب أجزاء الفكرة ، فلغة التي لا تتغير أواخر كلماتها في الإعراب تعتمد كل الإعتماد في تنظيم الفكرة على ترتيب اللفظ ، وأما اللغة التي تتغير أواخر كلماتها في الإعراب فأكثر مرونة وحرية ، لأنها تستطيع . في نظر زكي نجيب محمود . أن تقدم وأن تؤخر ، معولة في فهم الفكرة ، لا على ترتيب لفظها ، بل على شكل أواخر كلماتها .

وفي اللغة الأولى . أي التي ترتب الفعل والفاعل والمفعول به . دقة العلم وفي الثانية ليونة الشاعر ، الأولى أقرب الى الكائنات الحية .

_ وخاصة أخرى تمتاز بها اللغة العربية عن الإنجليزية ، وهي تقديمها الفعل على الفاعل ، وهذا يدل على اهتمام العربي بالقيمة أكثر من اهتمامه بالأشياء عكس التفكير الغربي ، فعندنا . في اللغة العربية . الجملة الفعلية ، أي التي تبدأ بالفعل ، أما في الإنجليزية فلا يبدأ بالفعل ، كقولنا في العربية : " جاء عمر " تقابلها في الإنجليزية : "omar came" وإذا استبدل المبتدأ "omar" بضمير ، فيقال : " He came " ، وأما أن نبدأ بالفعل في أول الجملة قبل الإسم أو الضمير فذلك من النادر اذا استثنينا فعل الأمر .

وفي المثال الأول : " جاء عمر " ندرك الدخول أولا ، أي القيمة ، ثم بعد ذلك نعرف صاحب هذا العمل ، وفي اللغة الإنجليزية ندرك الإسم أو الفاعل ، وبعدها نتعرف على عمله وفعله ، وهذا دليل على أن اللغة العربية ومن ثم الثقافة العربية اجمالا ، تولى اهتماما كبيرا بالقيمة أكثر من اهتمامها بالأشياء .

على أن موقف زكي نجيب محمود من اللغة وان لمسنا منه مدحا وتعاطفا ، فذلك لايعني عنده أن اللغة وحدها كافية لتحقيق تقدم أو نهضة ، بل عن زكي نجيب محمود كثيرا ما انتقد اعتمادنا . نحن العرب . على اللغة وحدها بدل العمل في حياتنا .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نلتمس موقفين لزكي نجيب محمود من اللغة العربية :

الموقف الأول وهو موقف الرجل المعجب والمعتز بلغته أمام اللغات الأخرى واعتبارها أكثر مرونة وتعبيرا عن الحياة أكثر من أي لغة أخرى في العالم ، والموقف الثاني . الذي سيتضح في الفصل الثالث . معارضته " للعشق " اللغوي عند العربي دون تحريكه ساكن .

ومجمل القول فان اللغة العربية لها مكانتها عند العربي ، وهي مقوم اساسي من مقومات الأمة العربية الإسلامية ، وعلى منوالها أنتت عقلية العربي ، كما أن عقلية العربي أثرت في لغته ، ومنه فالتأثير متبادل بين اللغة وبقية المقومات الأخرى ، ومنها الفن العربي ، من شعر ورسم وزخرفة .

4.1 . الفن (الشعر . الرسم . الزخرفة)

يعتقد بعض الدارسين أن الفن الإسلامي مستوحى في نشأته وتطوره من روح الإسلام وتعاليمه ، فقد نشأ الفن الإسلامي بدافع الرغبة في الإجابة والإتقان ، وهذه الرغبة مستمدة من الإسلام نفسه ، ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : " إن الله تعالى يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " ، وهو ما نجده في التتميق والتزيق . الباشا ، حسن . (1999) . موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، بيروت : مطبعة أوراق شرقية ، ص99 .

ولم يقتصر تأثير الإسلام في الحث على تعلم الفنون بل قد جاء فيما يرى زكي نجيب محمود مرآة للعقيدة الوجودية للعرب ، " فالشاعر العربي اذا تغزل في امرأة ، فلم يكن في معظم الحالات ، بل ان غزله منصب على نوع المرأة بأسره ، وكذلك قل فيه اذا وصف جوادا يقصد الى امرأة بعينها ، أو بعيرا أو مما شئت مما كان يتعرض لوصفه ."

وهي الصورة نفسها تتكرر بالنسبة الى الزخرفة ، حيث تتخذ شكل وحدات متكررة كما في الوحدات الزخرفية على جدران المساجد ، وهذه الوحدات المتكررة " اينما وجدتها ترى عينيك قد انتقلت من طرف الى طرف دون ان يكون هناك ما يستدعي الوقوف ، الا ان يكون الحائط المزخرف قد انتهى ، وعندئذ ينتهي دور البصر ، ويأتي دور الخيال ، لأنه هو الذي يستكمل تسلسل الوحدات الى ما نهاية " محمود، زكي نجيب .(1981). هموم المثقفين ، ص127.

واما عن فن الرسم ، فانك تجد . حسب زكي نجيب محمود . رسوم الطير والحيوان والنبات ، كما تراها مثلا في سجادة او فوق آنية فخارية ، فوجد الفنان العربي يعتمد اهمال التفاصيل . كما هي الحال اليوم في الفن التجريدي المعاصر . " فكأنما يرسم تخطيطا لطائر ولا يرسم طائرا ، او يخطط لغزالة ولا يرسم غزالة " .محمود، زكي نجيب .(1981). هموم المثقفين ، ص123.

وهكذا يربط زكي نجيب محمود ربطا محكما بين عقيدة العرب الوجودية (الدينية) وبين الفن ، فلئن كان في صميم تكوين العقل العربي عدم الإكتراث بالأفراد او المفردات ، وانما يريد الخلاصة العامة المجردة ، فقد جاء الفن كذلك يعتمد على الشكل العام لا على المضمون الجزئي .

بينما نجد تأويلا آخرًا لبعض الدارسين مخالفا لوجهة نظر زكي نجيب محمود حيث يرجعون اهتمام العرب بالشكل لا بالمضمون في الرسم الى تحريم الإسلام رسم كائنات حية. الباشا ،حسن.(1999). موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، ص99. وهذا لقوله صلى الله عليه وسلم : " من صور صورة في الدنيا ، كُلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ" رواه البخاري

ومجمل القول فان زكي نجيب محمود يرى بأن النظرة السريعة الى الفن الإسلامي كافية للتفريق بينه وبين الفن اليوناني مثلا أو الفن الهندي أو الفن الفرعوني القديم ، فالفن الإسلامي هندسي يقيم اشكاله من خطوط وزوايا ومربعات ومثلثات ودوائر ، إنه لا يرسم كائنات الطبيعة وأشياءها، لأن هذه الكائنات لا تمتزج بنفسه ، ولا العربي الفنان يسعى لمزج نفسه بها ، " إنه اعلان من الفنان العربي بانفصال ذاته انفصالا تاما من الأرض وكائناتها،إنه احتجاج على المتناهي باللامتناهي " .محمود، زكي نجيب.(1980). تجديد الفكر العربي، ص284.

خاتمة

وختاما ، يمكن تلخيص هذا المداخلة بالقول ان زكي نجيب محمود حاول البحث عن اصول الثقافة العربية الإسلامية ، فوضع يده على اهم هذه الخصائص ، منها تفرعت باقي الخصائص ، ألا وهي العقيدة الوجودية لدى العربي التي يقسم فيها الوجود الى عالمين : عالم الحقيقة المطلقة وعالم المتغيرات ، العالم السماوي والعالم الأرضي ،عالم الروح وعالم المادة... الخ وما أمر الأخلاق (الخير) إلا ما حدده العالم السماوي بمعزل عن النفع والضرر أوالإختيار الإنساني وقد جاءت لغة العربي امتدادا لهذه الثنائية ، فهناك عالم الألفاظ وعالم الأشياء ، وقد انصب إهتمام العرب الى الكلمات وتجربياتها العامة ، واما فن العربي فهو الآخر تجريدي لا يولي اهتماما بالجزئيات الا بقدر ما يساعد على التعميم ويوحى للعقل بالتجريد.

قائمة المصادر والمراجع :

1-المصادر:

- محمود، زكي نجيب (1982). هذا العصر وثقافته، القاهرة: دار الشروق.
- محمود، زكي نجيب (1981). هموم المثقفين، القاهرة: دار الشروق.
- محمود، زكي نجيب (1980) تجديد الفكر العربي. القاهرة: دار الشروق.
- محمود، زكي نجيب (1993). قصة عقل، القاهرة: دار الشروق.
- محمود، زكي نجيب، حصاد السنين، مصر: دار الشروق.

2-المراجع:

- الباشا، حسن (1999). موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، بيروت: مطبعة أوراق شرقية.
- صبحي ، أحمد محمود. الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مصر: دار المعارف.
- غارديه، لويس (1992)، أثر الإسلام في العقلية العربية ، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت: دار الفكر اللبناني.
- فروخ، عمر (1989). عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، لبنان: المكتبة العصرية.
- محمود، زكي نجيب، وأمين، أحمد. قصة الفلسفة الحديثة ،مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- نصار، محمد عبد الستار (1982). دراسات في فلسفة الأخلاق ، الكويت: دار القلم.